شكري مصطفى.. العاشق المقهور

يتحدثون كثيرًا أن شكري مصطفى، مؤسس جماعة التكفير والهجرة، كان السجن سببًا في اعتناقه فكر الخوارج، إلا أن ذلك على غير الحقيقة، فحين نقترب من تلك الجوانب الخلفية له سنجد أسبابًا أخرى جعلته قاسيًا وناقمًا على كل المجتمع، يفرغ فيه، أحكام التكفير والقتل، ويحكم عليه بالضياع والجاهلية.

حكى لي أحد رفقائه الأوائل، أن شكري مصطفى، كان دائم الانزواء، يكره الناس، ناقمًا على كل مجتمعه لأنه تعرض لصدمة اجتماعية خطيرة، ألا وهى زواج أبيه (العمدة) من راقصة من مدينة أبى قرقاص.

ولد شكري بقرية أبو خرص، مركز أبو تيج، محافظة أسيوط عام١٩٤٢، كان أبوه عمدة القرية، لكنه انفصل عن أمه وهو صغير، وتزوج راقصة من مدينة أبو قرقاص بالمنيا، وكانت هى الصدمة الكبيرة جدًا في حياته، التي جعلته يعيش طوال الوقت منزويًا، يخشى

أعين الناس في ذلك المجتمع الصعيدي، التي كانت مثل هذه الأمور فارقة لديه، بل وكانت سببًا رئيسيًا فيما بعد في كفره بالمجتمع، وتحوله لفكر الخوارج.

عاش شكري مع زوج أمه وكان رجلا قاسيًا، وتنقل ما بين محافظة سوهاج ومدينة أبى قرقاص، ومحافظة أسيوط، التي التحق فيها بكلية الزراعة، وهناك التقى بالشاب محمود منيب بمسجد الجمعية الشرعية، وكان هذا الشاب يعمل موظفًا بالجامعة، وفى هذه الآونة أحب شابة وأراد أن يتزوجها من أسيوط، وأقنعه صديقه بالزواج منها، كما دفعه للذهاب مرة أو مرتين إلى مقر جماعة الإخوان، التي كان ينتمي لها.

تم القبض على محمود منيب بسبب انتمائه لتنظيم الإخوان، لكنه مات في التعذيب ولم يعترف بشيء، وبحث الأمن عن كل أصدقاء الشاب الإخواني ليدلوا بأية معلومات، وكان منهم شكري، وعذبوه تعذيبًا بشعًا، وكان لا يعرف أى شيء عن جماعة الإخوان بالفعل.

فقد شكري صديقه الوحيد محمود منيب في سجون ناصر، كما فقد حريته أيضًا، وفقد حبيبته التي كان يريد أن يتزوجها، وأصبح من تلك الشريحة التي يطلق عليها صغار المعتقلين في السجون.

وجد بغيته في صديق آخر، وهو طه السماوي، الذي كان في مثل سنه، واعتنق ذات الأفكار لظروف مشابهة، كانا يتحدثان معًا باللغة العربية الفصحى، يستثير ذلك معتقلي الإخوان فيضحكون عليهما، ومرة على مرة ازداد حنقهما على الجماعة،

وكرها رؤية أى أحد من أتباعها، في ذات الوقت الذي كرها فيه العساكر والشرطة، لأن مصلحة السجون منعت عنهما المصاحف في بداية الاعتقالات، تحت خطة (وجود المصاحف يرفع معنويات المسجونين).

السماوي قال إن من يمنع المصاحف مرتد، ووقف شكرى لمأمور السجن بكل شجاعة وقال له: أنت كافر.

من يريد أن يعرف لماذا أصبح شكري زعيمًا للتكفير، فليفتش عن القسوة والاحتقار، قسوة والده على أمه وضربها أمامه مرات ومرات، ثم زواجه من راقصة، واحتقار الأهالي له، ثم احتقار جماعة الإخوان له داخل السجون.

كان شكري يريد أن يشعر بذاته ويحس بكرامته، لكنه كان لا شيء في عيون قادة وأفراد الإخوان في السجون، هكذا هم كانوا يرونه ليس تابعًا لهم من البداية، كما أنه صغيرًا في السن عنهم، لذا فقد كان يمقتهم ويريد نسف تلك الجماعة التي لا تراه ولا تشعر به مطلقًا، رغم أن والده لم يزره في السجن، ولا والدته التي أجبرها زوجها على نسيان أول أولادها.

في هذه الأثناء بدأ شكري يصلى بمفرده هو والسماوي ويعتزلان جماعة الإخوان بسجن طرة، ولما قبلهما الشيخ على عبده إسماعيل قالا له: إنهم مرتدون وكفرة.

جلس على عبده إسماعيل مع الإخوان وناقشهم، واكتشف أنهم لا يكفرون الحاكم، فوقع في حيرة من أمره، وباعتباره عالمًا أزهريا خرج برأي آخر، وهو أن من يسمى نفسه بأسماء المسلمين أو يحمل في بطاقته الديانة مسلم فلا نحكم عليه بالإسلام ولا بالكفر ولكن نتوقف في الحكم عليه حتى نتبين إسلامه من كفره، ومن هنا نشأت جماعة (التوقف والتبيين).

بعد شهور تاب على عبده إسماعيل من نظريته التكفيرية، فاتهمه شكري مصطفى وعبد الله السماوي بالجبن والخوف، شكري كان صادقًا مع نفسه، كل من كان يتعامل معه كان يشعر فيه أنه مؤمن بأفكاره للغاية، لكنه في ذات الوقت كان مغرورًا.. كان وفق ما قاله لى الشيخ خالد الزعفرانى، الذي كان ثالث ثلاثة انضموا لجماعة شكرى: نحن الوحيدون على الحق.

كان إذا رأى رؤيا أو حلمًا سرعان ما يتحقق، فأغواه ذلك أن يتصور أنه منصور من قبل الله، وأوصلته نفسه إلى أنه (مهدي هذه الأمة).

قال الزعفراني : كنا نجلس على كورنيش النيل أنا وهو ذات يوم، فمر (ماعز) أمامنا وأحدث صوتًا عاليًا، فشتمه شكري وقال له (دوشتنا)، فرد عليه خالد وقال له: لعل يرحب بنا، وعلى الفور رد شكري قائلًا: يا ليت لى نفس مستبشرة مثلك.. أنا نفسي يائسة.

كانت من المرات القليلة التي يعترف بها شكري إنه يائس من الحياة ومن المجتمع.

وفق ما كتبه القيادي الإخواني إبراهيم الزعفراني أيضًا ابن عم خالد، أن شكري كان يذهب إلى الإسكندرية كثيرًا ويجوب المحافظات للدعوة لأفكاره، وكتب ما يقارب من ١١ كراسة ضمنها كل أفكار الجماعة، وقام أتباعه بحفظها دون مناقشة، أو تردد، ومنها واحدة تتكلم عن أن النطق بالشهادتين غير كاف للحكم على الإنسان بالإسلام، وأخرى عن قرب قيام الساعة وظهور علاماتها الصغرى، وأخرى عن العزلة والهجرة والخروج إلى الجبال.

فشل شكري في إكمال تعليمه على الوجه الأكمل، ولما اعتنق أفكار التكفير ألف كراسة تحدثت أن هذه الأمة أمية، وأن التعليم في المدارس حرام.

كان يتحدث أن الحروب المقبلة ستكون بالسيف بعد دمار كل الأسلحة الحديثة، وأن مساجد الأمة كلها ضرار، فكان يعقد دروسه في منازل وشقق مفروشة، وهناك يقوم بتزويج الرجال والنساء المنضمين للجماعة بنفسه، وبعضهن قد هربت من زوجها دون طلاق.

كلف بعض أتباعه بالهجرة للخليج للإنفاق على الجماعة، ثم أمَرهم بالهجرة إلى جبال الصعيد استعدادا للهجرة إلى السعودية لمقاتلة جيش الكفار الذي سيأتي لتدمير الكعبة في آخر الزمان، وكانت حياة الجماعة كلها جماعية، في المأكل والمشرب، وفى السكن.

في هذه الأثناء تزوج شكري من شقيقة الإخواني محمد صبحي مصطفى، كما تزوج أخرى أخت شاب من أتباعه اسمه الخضيري،

وتزوج واحدة أخرى من أتباع الجماعة، وكان من حوله يقدسونه، وهم من صنعوا له هالة كبيرة، رغم أنه ما دخل في نقاش إلا وهزم، ومنهم أنور مأمون، وناير، وصلاح الصاوي الذي أصبح من القيادات السلفية فيما بعد. كان شاعرًا لو أخذ حظه من الشعر كما أخذه من التكفير، لغدا من شعراء مصر، وأذكر من شعره أنه قال في قصيدة مطلعها:

ليل كالفحمة أسوده هل غير الصبح يبدده؟!

صبح المشتاق وموعده بعد المحبوب يبعده

إن جاء النجم يهدهدني فالدمع بعيني يفقده

إن جاء البدر ليؤنسني يحتال الليل فيرقده

فأنا السهران بمفرده يقظان اللحظ مسهده

قلبي المسكين غدا أثرا أفنى الدقات تنهده

قد كنت تغار لعزلته فأتيت له تتهدده

وكتب عن محبوبته التي فقدها قائلًا:

أمات لي الصبر لولا الصبر ذكراك وشفني البعد عن أيام مغناكِ

تسلو القلوب فطول العهد مسلية ومافؤادي بطول العهد يسلاكِ

أقول للنفس إن همت بتعزية لا كنت مني إذا ما الدهر عزاكِ

شكوت للنجم ظلم الليل أشهده وهل درى النجم يوما شكوة الشاكي

رأيته ساهرًا مثلي على حدة فخلته عاشقا أو ثاكلا باكي

كلاهما ساهر يشكو النوى قلقا كلاهما سائر في أرض أشواكِ

يزور طيفك بيتي كل آونة وكلما دق باب فيك لباكِ

صفى لقلبك قلبي حين خالطه وعشت منك ملاكا بين أفلاكِ

له قصيدة اسمها الطوفان، قدم لها بنفسه قائلًا: لقد كانت الهجرة في دمي، وكانت الهجرة عندي هي العزلة، أو هي الفرار، أو هي الثأر، لا أدري كل الذي أدريه، إنها كانت المنطلق لنفسي من سجنها، أو المرفأ لها في بحر همومها، لكن الجديد في هذه القصيدة، أنني كنت فيها أحذر من شيء، وأدعو على شيء، واقترح حلًا، وقد كتبتها في عام ١٩٦٧م.

من بعض أبيات القصيدة:

من قبل الطوفان

اسمعني يا عبد الله...

وأخرج من أرضي واتبعني.. في أرض فلاة

أرضي في قلبي لم يعبد فيها الشيطان

أرضي في فكري أحمله في كل مكان

عظمها في قلب المؤمن.. طهرها فيض الإيمان

فاحمل أوزارك واتبعني يا عبد الله

يكفينا زادا في الدنيا هذا القرآن

في أرض الهجرة يا صحبي طهر وسلام

وعبادة صدق وخشوع بين الآكام

وفرار من سخف الدنيا ومن الآثام

وحكومة عدل وأمان

وصدقني في الأرض الواسعة أمان

فتعال الله تعالى يا عبد الله

ماذا يعنيك من الدنيا بعد الإسلام

أنا لن أستسلم

سأحارب جيش الأصنام

رغم أنه كان شاعرًا من الوزن الثقيل، إلا أنه لم يكن مقنعًا لأتباعه، لكنه وفق خالد الزعفراني فإنه كان يستخدم حيلة الإيحاء،

obeikandl.com

ويقول لمن يناقشه أنا معي مئات الأدلة.

نجح حسن الهلاوي في هزيمته فكريًا، كما نجح الشيخ الذهبي في ذلك، وأدى انهيار التنظيم وانشقاق المئات منه مرة واحدة، إلى وصول شكري لحالة نفسية عصبية وصفها من رأوه انه كان مجنونًان فأصدر أمرًا بقتل أى منشق، فقتلوا حمدي بكر، وقطب سيد، من أتباعه، وأصدر أمرًا بخطف الذهبي، وحكى أحد أتباعه أن شكري كان في أحد الشقق المفروشة وحوله أتباعه، صمت دقائق ثم رفع رأسه، وأشار بأصبعه ونطق بكلمة واحدة قائلا: (قضى الأمر اقتلوه) وعلى الفور تحرك فريق الخاطفين الى مكان وجود الشيخ وقتلوه باستخدام مسدس كاتم للصوت على يد ضابط شرطة سابق اسمه أحمد طارق عبد العليم.

الانهيار للتنظيم كان سببًا في قتل الذهبي، وكذلك روح الانتحار، التي كان يتصف بها شكري، حيث إنه كان يائس وغاضب طول الوقت.

وهو فوق المشنقة بسجن الاستئناف، لم يكن يظن أنهم سيعدمونه، قال لهم: إن الأرض ستنشق بكم، وحينما ألبسوه الحبل في رقبته قال: قولوا لأتباعي يراجعوا ما هم عليه.